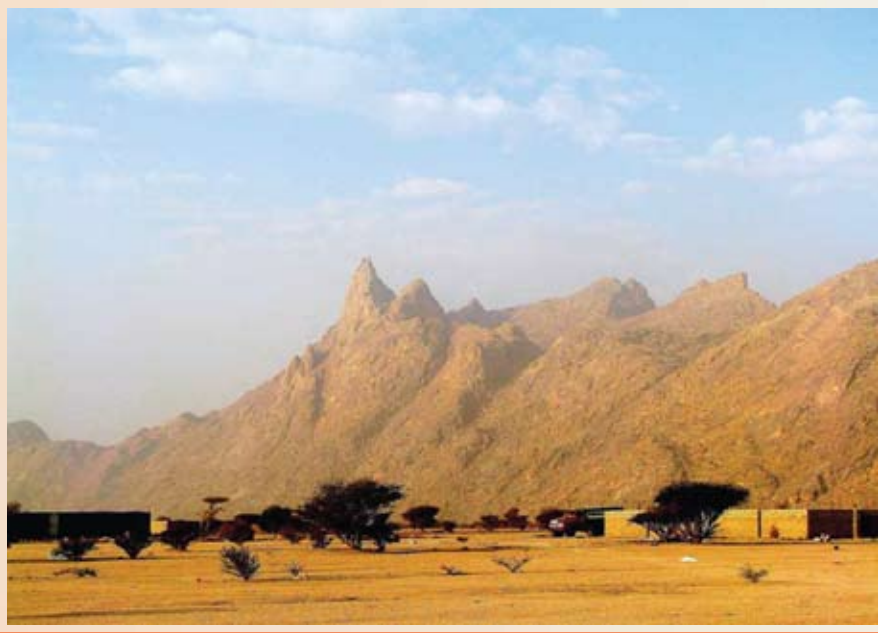


النخلة في ذاكرة الشعراء دالة الأنا الشاعرة

سامح كعوش
شاعر وناقد أدبي فلسطيني

samkaawach@gmail.com



يتخذ لقيمته التشكل السحري في ذاكرة آبائهم وأجدادهم، لينحضر في حاضرهم واقعاً جميلاً بديعاً يتلون بالأخضر ويتخذ شكل السامق الباسق يطاول سحب السماء ويشق العنان بمرآه العجب، يشابه مآذن المساجد في إحالة فكرية قيمة إلى المقدس والمبارك، يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

في الشعر يبدأ قارئه بما خطه قلم الأمير وجادت به قريحته، أمير الشعراء أحمد شوقي، فكيف به بادئاً القول في الشجرة المباركة التي عرف العرب قيمة ثمرها فكرموها لتكرمهم، وحفظوها لتحفظهم، وأعطوها قليلاً من جهد ورعاية، وأعطتهم كثيراً من رغد وثروة، حتى بدت لهم في متخيل شعرائهم شكلاً أسطورياً



يُرمى بصخر فيعطي أطيّب الثمر، أو هي راية قوم في حلهم ومسكنهم، واختيارهم الأنسب من المكان لإقامتهم، يقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى:

وهل يُنبت الخطيّ إلا وشيجه

وتُفرس إلا في منابتها النخل

وهي بحسب العلماء تلك الشجرة الباسقة في علياء السماء، الضاربة بجذورها في عمق الأرض، الشجرة التي حنّ جذعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فارقه حين صنّع له المنبر، الشجرة المثلى في عطائها واستقامتها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، حتى ارتبطت لدى العرب بالسكن وطيب المقام، والجاه والمكانة والثروة والأمان، الأمان المادي الذي يضمن الغد ويجعل المرء في مأمن من عثرات الزمان حتى يرتبط غنى الرجل بعدد نخلاته أو وفرة ثمرها، ولنا الدليل إلى ذلك ما ورد في الحديث الشريف «بيت لا تمر فيه جياع أهله»، وها هو شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت، يخاطب ابنه؛ عبيدا، وقد أدركه الكبر فيقول:

أبلغ عبيدا أني قد تركت له

من خير ما ترك الآباء للولد

أرى شجراً في السماء احتجب

وشق العنان بمرأى عجب

مأذن قامت هنا أو هناك

ظواهرها درج من شذب

أهذا هو النخل ملك الرياض

أمير الحقول وعرس العرب

طعام الفقير وحلوى الغني

وزاد المسافر والمغترب

والنخلة شجرة الأصل ورمز الأصالة تحمل دلالات الارتباط الوثيق بمنظومة القيم المجتمعية عند العرب المسلمين منذ آلاف السنين، مباركة بالثمر والتمر، كأنها تنتقي مكانها من الأرض لتبارك ما حولها بطيب الثمر، وردت مفردة دالة في معجم ألفاظ الكلام لدى الشعوب، وخصها الله بالذكر في القرآن الكريم، فالنخل شجر الرطب والتمر، واحدها نخلة، وجمع النخل نخيل والنخيل من العرب من يؤنثه ومنه من يذكره نقول النخل الباسق والنخل الباسقة وجاء الكتاب باللغتين فأما النخيل فمؤنث عند الجمع.

وللنخلة أسماء نطقت بها العرب من حين تبدو صغيرة إلى أن تكبر وكذلك الرطب من حين يكون طلعاً إلى أن يصير رطباً، تقول العرب لصغار النخل: الجثث والهراء والودي والفسيل والأشاء. ويذكر الثعالبي في فقه اللغة (إذا كانت النخلة صغيرة فهي الفسيلة والودية فإذا كانت قصيرة تناولها اليد فهي القاعدة فإذا صار لها جذع لا يتناول منه المتناول فهي جبارة فإذا ارتفعت عن ذلك فهي الرقلة والعيدانة فإذا زادت فهي باسقة فإذا تاهت في الطول مع انجراد فهي سحوق، ولأن لها كل ما ذكرناه وأكثر من معجم دلالة في بنية لغة، نراها حاضرة كعلامة في حياة الجاهلية بما عنته من شظف عيش واسترشاد بعلامات وسط الصحراء كأنها مظلة لرؤوس أقوام شمخت فسمقت نخلتهم، حتى قال قائلهم: «كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً/

ورحمة باللي بقي من رعض عذرا ذابله
ومالها غير الشعر رفقة لها الدرب الطويل
تقرا بياض احساسها بعض العقول الكاملة
وتبكي مشاعرها مع صوت انكسارات النخيل

وكأننا بالشاعر الإماراتي يستعيد قصة الخليفة
الأموي الأول في دولة الأندلس، عبد الرحمن
بن معاوية، عبد الرحمن الداخل مع النخلة، في
مرثية للذات والروح التي أثار فيها مشهد النخلة
الغريبة كثير وجد وشوق إلى بلاد الشام، كأن
الشاعر يقيم علاقة الدال بالدلالة، والأصيل
بالأصالة، فالنخلة رديف الشرق، وهي اليتيمة
الغريبة في الغرب، غربتها عن الأهل موتها،
وغرابتها في المكان الذي لو أنها قدرت على
البكاء لبكت فيه منبتها على ضفاف الفرات،
لأنها لا تنتمي إلى المكان الجديد، كما لا ينتمي
الشاعر الذي قال:

يا نخل أنت غريبة مثلي
في الغرب نائية عن الأصل

فابكي وهل تبكي مكيسة
عجماء لم تطبع على خبل

لو أنها تبكي إذن لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل

لكنها ذهلت وأذهلني
بغضي بني العباس عن أهلي

ولأن الفرات موضع نبت النخيل كما هو النيل، أو
كما هو الخليج العربي كله وقد عُرف عند العلماء
أن الخليج موطن النخيل منذ القدم، الممتدة
سواحلها من أعالي العراق حتى جنوب الساحل
العُماني واليميني، في قصيدة من روائع عيون الشعر
الرومانسي الشفيف، وإن محملاً بغايات وطنية
وقومية مغلقة بشفاافية الشعر الوجداني الحر، ليدر
شاعر السياب في وصفه عيني حبيبته، يقول:

عينك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر



أضحت شماريخه في النحر مطلعة
إما ثريا وإما معصما خضبا

وكما للنخيل إنسانه فلإنسان في ذات النخلة
أحزانه وانكساراته التي تشبه أحزان هذه النخلة
وانكسارات هذه القائمة الواقفة في الحرّ والقفر،
معلنة انتماءها للأخضر ضد اليباس، والجفاف،
ولو كان جفافاً مشيراً إلى الذات والروح لا إلى
الرمال والمكان، في وحدة الصورة والتصور،
الشاعر حين يشير إلى الأنثى بالنخلة، ويضمّن
أحزانها بالمجاز في لغة انكساراتها، فها شاعر
إماراتي مجهول يقول في انكسارات النخيل:

عزّ الكلام بخاطري بعض الحروف السائلة
وأنا افترشت الصبح أبحث للقصيد عن مقيل

الدار واسعة والنخل شارعة
والبيض يرفلن في القسي كالبرد

وباتت النخلة رمز اخضرار وري وسقيا في
المكان الجذب، تكون الحياة حيث تكون النخلة،
وبها يستدل التائه في الصحراء حتى يراها في
السراب والمتخيل إن لم يرها في الواقع، تضي
على حياة الإنسان حلاوتها وطراوتها ويرتبط
منبتها بأصل الحضارة والتحضّر في البلاد
عوضاً عن الصحراء والتصحر، وهي الشجرة
المباركة المحتملة العطش والشطف والجفاف،
يقول الشاعر السري الرفاء المتوفى سنة ٣٦٦ هـ:

فالنخل من باسق فيه وباسقة
يضاحك الطلع في قنواته الرطباً

من قبل ما يصنعون الخل والعشائر ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

بل ويشير الشاعر إلى الآية القرآنية في وصف مخاض السيدة مريم عليها السلام، «وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي وقري عيناً»، والرطب اللذيذ المغذي دواء الجسد وشفاء المرض، وبه الراحة للبدن، فالغذاء دواء، فكيف إذا كان منتخباً من قبل الله رب العالمين، سبحانه وتعالى، وهو الأحسن من أكل اللحم والمحار، بل هو غذاء عيسى بن مريم، عليه السلام، والغذاء للأمم تغذية لولدها، وهنا يكمن السر في اختيار عبيد الله التمر ثمراً مغذياً لخير خلقه، لأنبيائه ورسله في البشر، يقول الشاعر في القصيدة:

أول غذاء للنبي عيسى وولد مريم
والهمها الله تهز بالجذع ما تعلم

إنه غذاء أحسن من أكل اللحم والمحار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

بيت النبي المصطفى على التمر خذ شهرين
من يأكل أربع قتع بيت قرير العين

هذا غذاء الجيش ليهو حارب الكفار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

عوض بن عبيد الله، الذي بيدوها بالإشارة إلى القيمة الدينية للنخل إذ إن الله قد رفع شأنه وعظمه بين الشجر وذكره في كتابه الكريم في سورتَي الواقعة والرحمن، حتى أن شبيهه من النخيل لا يوازيه في الثمر وهو نخيل التمر، المميز بالطول والقدرة على احتمال العطش حتى باتت النخلة المباركة ملكة الأشجار في نظر الشاعر الوفي لبيئته وعناصر وجودها، قال:

النخل رب البرايا قد رفع شأنه
«ميزه بالطول والأنواع سبحانه»

خلاه يربى في الطقس الشديد الحار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
كم ما ذكرها إله الكون في القرآن
«في سورة الواقعة وفي سورة الرحمن»

الأصل ثابت وفرع في العالائي فار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

ويستقيض الشاعر في ذكر ما للمفردة الدالة/ النخلة من صفات تقدير وارتباط بالقداسة الإلهية التي باركتها بالثمر والشجر والمنبت، فها هو الشاعر يشير إلى أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم يشبهها في الحديث الشريف بالمؤمن ويقول إن كل المنافع فيها، وكما ورد في الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم»، وقال: «من تصبّح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر»، إلى جانب ارتباطها بالمكان المبارك، أرض العرب في الجزيرة وبلاد الشام، مهبط الرسالات السماوية، يقول الشاعر ربيع عوض بن عبيد الله:

ونبي الإسلام مثلها كما المؤمن
قال كل المنافع وسطها تكمن
وثمارها حالية من أحسن الأثمار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
أرض العرب والجزيرة موطنه الأول
من قبل الإنسان يتغير ويتحول



وإن الإشارة إلى حديث الشجن في أحزان النخيل تستعيد خطاب الشعراء للنخلة مؤنسنة ومشخصنة، فالنخلة تستجيب للنداء، وتبرز في أحلى الحُل كأنها الأنتى الحسنة، أو كأن الأنتى إياها، كما في وصف الشاعر الضليل، امرئ القيس في معلقته الشهيرة، يصف شعر حسنة قائلاً فيها ما يجعلها أخت النخلة وشبيبتها في الجمال والاسترسال:

وفرع يغشي المتن أسود فاحم

أثبت كقنو النخلة المتعتكل

غداثره مستشزرات إلى العلى

تضل المدارى في مثنى ومرسل

ولا يمكن الحديث عن النخلة المباركة بكل ما تحمله اللفظة الدالة / مفردة النخلة من دلالات على المستويات المعجمية والمضمونية والدلالية، دون استعراض قصيدة الشاعر الشعبي ربيع

من قبل ما يصنعون الخل والعشائر
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
أول غذاء للنبي عيسى ولد مريم
والهمها الله تهز بالجذع ما تعلم

إنه غذاء أحسن من أكل اللحم والمحار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
بيت النبي المصطفى على التمر خذ شهرين
من يأكل أربع قتع بيت قرير العين

هذا غذاء الجيش ليهو حارب الكفار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
وعند لفطار في رمضان باشر به
أوصى به المصطفى أحمد أمر من ربه

وان ما وجد تمر بطلت مائدة لفطار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

يقول بو صالح إن النخل جاء يشكي
ولعاد حصل متاكي فوقها يتكي

غير القرارات عوجاء منها محتار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

منافع النخل جم ما بقدر أحصياها
حتى ولو هو مجلد ما يكفيها

جذعه وليفه وخوصه كلها أسرار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

سريع يدركك وقت الضيق توي في الحال
في البحر لأهل السفن والبر للجمال

ولا تدور على أهل الشخط وأهل النار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

وقت المجاعات والحروب والشدة
ماعد تسأل على الطباخ والعدّه

ويصل الأمر بالشاعر إلى حد العجز في القول
البيان حول ما للنبتة المباركة والشجرة الطيبة
من فوائد، لا تقتصر على ثمارها من التمر
والرطب، بل وتتجلى في استعمالات اعتادها
العرب لها في موضع علاقتهم الحميمة بها،
تشاركهم يوميات حياتهم وتكاد تتمثل لهم
إنسانا من لحم ودم، وهي التي يتخذون من
ليفها وجذعها وخوصها أدوات للعيش والبناء
والرخاء، إلى جانب استعمالات شتى لا تتسع
قصاصد الشعراء لتعدادها، وإن اكتفى الشعراء
بالمح بدل التصريح، في موضع المديح للشجرة
المباركة، يقول الشاعر في خاتمة بيانه:

منافع النخل جم ما بقدر أحصياها
حتى ولو هو مجلد ما يكفيها
جذعه وليفه وخوصه كلها أسرار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

نص القصيدة:

النخل رب البرايا قد رفع شأنه
«ميزه بالطول والأنواع سبحانه»

خلاه يربي في الطقس الشديد الحار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

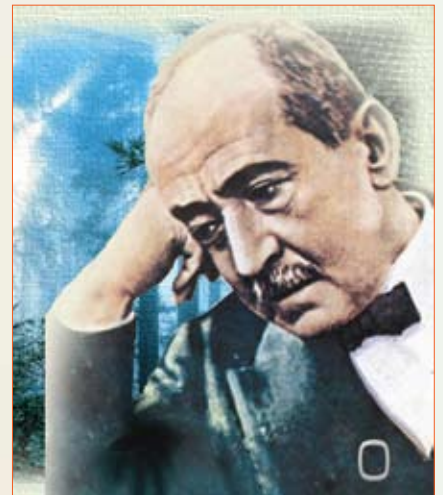
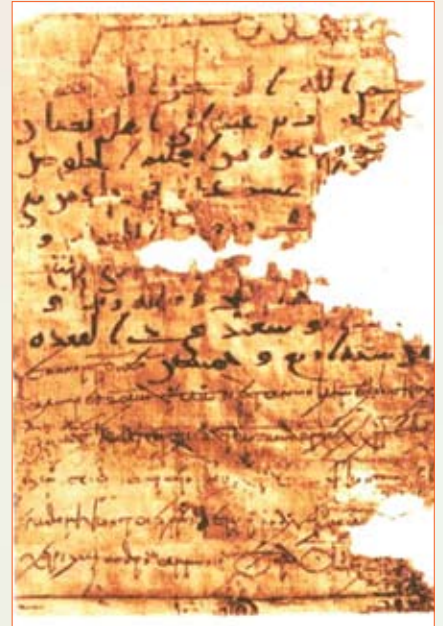
كم ما ذكرها إله الكون في القرآن
«في سورة الواقعة وفي سورة الرحمن»

الأصل ثابت وفرعش في العلالى فار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

ونبي الإسلام مثلها كما المؤمن
قال كل المنافع وسطها تكمن

وثمارها حالية من أحسن الأثمار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

أرض العرب والجزيرة موطنه الأول
من قبل الإنسان يتغير ويتحول





وادخل تفكر بسوق الشطف في سيئون
جملة محلات وأمه منه يعيشون
وجمع المدن في اليمن مثله ثمان مرار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار

المحله والغطاء والمسرفه الزينه
ذي سفرة الضيف لانه له ملا عينه
المروحه والقفف لي تفرح البقار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
وفوائد الشطف جم ما تحتصي بالعد
مثل المكل والمرابش والعبي والشد
ومكانس المحضره والحوش والمعبار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
والليف للنحر والخطمان والغرضه
عاد المزر لا دول يلمع كما الفضة
منه قتب والحقيه والجميع اشوار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
كل الحضاير تقع من قصم حق نخله
وسقيفة الظهر والعروش مع الظله
لا ارتش بالماء برد من بارد التيار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
جزم المجيحي لحفظ اللحم ثلاجة
اشهر في الظل معلق ملحه اعلاجه
ذوقه كأنه طري جبتة من الجزار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
والمطي مصنع مطبق هو وطبقانه
طبقه ومطبوق يحكمها بالوانه
من حكمة الله ما يقدر عليه الفار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
وجدوعها للحطب واقبال وتشاريع
ويقع قناطر يمر الماء عليها سريع
وجعار يسحق سبول البر في الاوصار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار



التمر والماء فقط لازم يظل في الدار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
المخي للحبل أما الخوص للشطفه
وفي الكرب والحطب كلين له وصفه
وكذا العجم يعلف الأغنام والأبقار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
ليف المديني وحبله ما مثيله قط
لق عصب متلمظه في الحلي واتوسط
للهيح والثور هو مرسه وهو خوار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
وفي شبام الزيبينه شط في الرقدان
شفها من اجذوع مرصوصه وشي عمدان
عبر السنين الطويله والزمن دوار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار
لو جيت للناس لي مهنتهم الخوصه
اسر فقيره وتعبانه ومبخوصه
في الغيل والسوم لما حجر بن دغار
ماشي يطاولش قط يا ملكة الأشجار